الخطاب الرابع و الثلاثون

سِلسِلَةُ مُحَاضَراتِ:
لا يَضُرُّهُم مَنْ خَذَلَهُمْ

المُحاضَرَةُ الرابِعَة، وَ هِيَ بِعُنوان:

(قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ)

4 رمضان 1426 هـ
7 أوكتوبر/تشرين الأول 2005 م

بِصَوْتِ الشَيخ
أَبِيْ مُصْعبٍ الزّرْقَاوِي (رَحِمَهُ الله)

الحمدُ للهِ معزِّ الإسلامِ بنصرِه، ومذلِّ الشركِ بقهره، ومصرِّف الأمورِ بأمرِه، ومستدرجِ الكافرين بمكرِه، الذي قدّر الأيامِ دولاً بعدلِه، وجعل العاقبةَ للمتقين بفضلِه، والصلاةُ والسلام على من أعلى اللهُ منارَ الإسلامِ بسيفِه.

أمَّا بعد؛

فإن أي جماعة تنشد تغيير واقع الأمة وذلها وإعادة مجدها السالف وعزها، لا بد أن تمتلك في نفسها مجموعة من العوامل التي تؤهلها وتمكّنها من تحقيق بغيتها والوصول إلى غايتها وأُسُ هذه العوامل وأصلها أن يكون لها خطاب

دعوي ديني واضح المعالم، ثابت الأركان، يقوم على أسس محكمة متينة تستمد منه الجماعة أسباب حياتها ومقومات استمرارها فإذا ما ترافق هذا الخطاب مع عمل جهادي منظّم التزم أفراده مقتضيات هذا الخطاب تأتّى للجماعة الحصول على ما تطلبه وتحقيق ما تنشده.

وإن المتتبع لسير العديد من الحركات الإسلامية المعاصرة ليتبيّن له بجلاء أن خطابها الديني مشوه في معالمه، غامض في مصطلحاته، فضفاض في عباراته وشعاراته وما ذاك إلا لابتعادهم عن استخدام المصطلح الشرعي في خطابهم واستبدالهم إياه بمصطلحات عصرية حادثة يقطر منها منهج الانهزامية ويرشح منها سبيل التبعية الفكرية، فبتنا نسمع لفظ المقاومة وصراع الحضارات بدل الجهاد في سبيل الله، ولفظ المدنيين والأبرياء بدل الكفار والمحاربين، ولفظ الطرف الآخر بدل اليهود والنصارى، إلى غير ذلك من الألفاظ التي يطول ذكرها، والتي هي في حقيقتها سبيل إلى تفريغ المصطلحات الشرعية من مضمونها ودلالاتها التي أرادها الشارع الحكيم من وضعها.

إن حدود الشرع مبنية على فهم هذه المصطلحات، وإن الخلل في فهم هذه المصطلحات التي خاطبنا الشارع بها يؤدي إلى إفساد فهم المخاطبين بهذا الدين، ومن ثمّ إفساد عبادتهم لله رب العالمين، ويتضح ذلك بتأمل مصطلح الإيمان، فقد رتّب الله سبحانه وتعالى على الإتيان به أمورًا وعلّق عليه وعودًا، فقال سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا} [الحج:38]

وقال سبحانه: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ} [النور:55].

فالخلل والجهل في فهم معنى الإيمان عن شرع الله قد يؤدي بالمرء إلى تكذيب القرآن أو الشك في موعوده حيث لم يتحقق هذا الوعد.

ولذا كان الخطاب الدعوي للمجاهدين أهل الطائفة المنصورة يقوم على المصطلح الشرعي في مخاطبة المدعوّين لا غيره ما أمكن ذلك، وذلك أن المصطلح الشرعي هو الأقوم والأهدى لما وضع له.

أما غيره من المصطلحات المخترعة الموّلدة فلا يؤمن معها الزلل والخلل لكونها من نِتاج العقول غير المعصومة فضلا عما فيها من إعراض عن هدي الكتاب والسنة وما ورد عن سلف هذه الأمة، فكان التمسك بهذه المصطلحات المبتدعة والشغف بها والتنافس فيها ليس له من مبرر غير اتباع الهوى مع التسليم بأنه استبدال للذي هو أدنى بالذي هو خير.

فأهل الطائفة المنصورة يعتصمون بالكتاب والسنة لفظًا ومعنى، فكما يعتصمون بمعاني الكتاب والسنة خوف الزيغ والضلال كذلك يعتصمون بألفاظهما خوف الزيغ والضلال.

إذ الزيغ والضلال كما يعرض من جهة المعاني فإنه يعرض كذلك من جهة الألفاظ والمباني، إذ الألفاظ بوابة المعاني ومدخلها وقوالبها التي تصب فيها، فما لم تكن تلك الألفاظ محكمة للحق جامعة وللباطل مانعة فستكون مدخلا للزيغ والضلال.

إذ الألفاظ للمعاني أئمّة وعليها دالة وإليها موصلة، وعلى المراد منها محصلة، ولذا فأهل الطائفة المنصورة يقصدون الألفاظ الشرعية ليضبطوا بها تلك المعاني فلا يشذّ عنهم منها شيء.

قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة:3].

فنص تعالى على أنه قد أكمل لنا الدين وأحكمه، وهذا الكمال شامل للمعاني والمباني، فالإعراض عن استعمال المصطلح الشرعي فيه انتقاص لهذه الشريعة الغراء.

ويقول الله سبحانه وتعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء:9].

وهذه الهداية هداية مطلقة، فهو يهدي للتي هي أقوم معنًى ومبنًى، وذلك في كل زمن من الأزمان وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد نفى سبحانه وتعالى العوج عن كتابه فقال سبحانه: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآَنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآَنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الزمر: 27-28]

قال ابن كثير: (وقوله جلَّ وعلا: {قُرْآَنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الزمر:28] أي هو قرآن بلسان عربي مبين لا اعوجاج فيه، ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله اللّه تعالى كذلك، وأنزله بذلك {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الزمر:28] أي يحذرون ما فيه من الوعيد ويعملون بما فيه من الوعد) انتهى كلامه رحمه الله.

فكان الخطاب الدعوي المبني على المصطلح الشرعي خطابًا دعويًا غير ذي عوج، وبالمقابل يكون الخطاب الدعوي المبني على غير المصطلح الشرعي خطابًا دعويًا ذا عوج وإن ظن أصحابه أنهم قد اعتلوا ذروة سنام الفصاحة وامتلكوا ناصية البيان.

إن أهل الطائفة المنصورة يدركون بأن الشرع في استخدامه لمصطلحات دون غيرها قد أعطى هذه المصطلحات معاني ودلالات خاصة، وما ذاك إلا رغبة في ربط هذه المعاني والدلالات بتلك المصطلحات، بحيث إذا

تم التعبير عن هذه المعاني والدلالات بغير تلك المصطلحات واستبدالها بمصطلحات محدثة لم يفد ذلك قطعًا أين ما أراده الشرع من معاني ودلالات نفيًا وإثباتًا.

ومن اليقين عند أهل الطائفة المنصورة أن ربط الشرع لمعنى من المعاني بمصطلح ما يعني أن هذا المصطلح هو وحده الأجدر والأصلح في التعبير عن هذا المعنى مهما تبدلت الأحوال وتغيرت الأزمان، إذ هذا الدين تنزيل رب العالمين.

قال ابن القيم - رحمه الله -: (ينبغي للمفتي أن يفتي بلفظ النص مهما أمكنه فإنه يتضمن الحكم و الدليل مع البيان التام وقد كان الصحابة والتابعون والأئمة الذين سلكوا على منهاجهم يتحرون ذلك غاية التحري حتى خلفت من بعدهم خلوف رغبوا عن النصوص واشتقوا لهم ألفاظا غير ألفاظ النصوص فأوجب ذلك هجر النصوص، ومعلوم أن تلك الألفاظ لا تفي بما تفي به النصوص من الحكم والدليل وحسن البيان فتوّلد من هجران ألفاظ النصوص والإقبال على الألفاظ الحادثة وتعليق الأحكام بها على الأمة من الفساد ما لا يعلمه إلا الله، فألفاظ النصوص عصمة وحجة بريئة من الخطأ والتناقض والتعقيد والاضطراب ولما كانت هي عصمة عهدة الصحابة وأصولهم التي إليها يرجعون كانت علومهم أصح من علوم من بعدهم وخطؤهم فيما اختلفوا فيه أقل من خطأ من بعدهم ثم التابعون بالنسبة إلى من بعدهم كذلك، ولما استحكم هجران النصوص عند أكثر أهل الأهواء والبدع كانت علومهم في مسائلهم وأدلتهم في غاية الفساد والاضطراب والتناقض، وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُئِلوا عن مسألة يقولون قال الله كذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا، أو فعل رسول الله كذا، ولا يعدلون عن ذلك ما وجدوا إليه سبيلا قط، فمن تأمل أجوبتهم وجدها شفاء لما في الصدور). انتهى كلامه رحمه الله [إعلام الموقعين عن رب العالمين].

وكلام ابن القيم هذا، وإن كان نصا في حق المفتي فإنه شامل كذلك للداعية بجامع التبليغ عن الله لدينه وشرعه، مع ما في كلامه رحمه الله من عموم ضرر هجر ألفاظ النصوص.

وقال ابن القيم: (فلما طال العهد وبعُد الناس من نور النبوة، صار هذا عيبا عند المتأخرين أن يذكروا في أصول دينهم وفروعه قال الله وقال رسول الله). انتهى كلامه رحمه الله [إعلام الموقعين عن رب العالمين].

وقد قال الغزالي وهو يتحدث عن بيان ما بدل من ألفاظ العلوم قال: (اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامي المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معانٍ غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول). انتهى كلامه رحمه الله. [إحياء علوم الدين/ كتاب العلم].

وقال ابن حزم في حديثه عن الألفاظ الدائرة بين أهل النظر: (هذا باب خلّط فيه كثير ممن تكلم في معانيه وشبك بين المعاني وأوقع الأسماء على غير مسمياتها ومزج بين الحق والباطل فكثر لذلك الشغب والالتباس وعظمت المضرة بخفاء الحقائق) انتهى كلامه رحمه الله.

وهذه الصورة التي أشار إليها كل من الغزالي وابن حزم رحمهم الله تعالى لا شك أنها من أخطر صور تحريف حقائق الدين وتغيير مفاهيمه، حيث يتم تجريد المصطلح الشرعي من معناه الحق وإسقاطه على معنى آخر غير ما وضع له، ثم ترويجه بهذا الآخر الجديد بغية التحريف والتبديل، فإذا انضاف إلى ذلك الاستعاضة بالكلية عن المصطلح الشرعي بمصطلح آخر محدث تأكدت الخسارة؛ لانقطاع الصلة بالأصل الذي من خلاله وحده يكون تصحيح

المعنى أو تقويم اللفظ، وقد يكون هذا المصطلح الجديد مما زخرفه أصحابه وحسّنوه، ببهرج القول وزخرفه، تمويهًا وتمريرًا لما في باطنه من باطل، فينخدع به أسرى الظاهر ممن يعميهم الشكل عن المضمون فيروج عليهم باطله فيهلكون.

قال ابن القيم رحمه الله: (بل من تأمل المقالات الباطلة والبدع كلها وجدها قد أخرجها أصحابها في قوالب مستحسنة وكسوها ألفاظًا يقبلها بها من لم يعرف حقيقتها، فلا إله إلا الله كم ها هنا من مزلة أقدام ومحل أوهام؟ وما دعى محق إلى حق إلا أخرجه الشيطان على لسان أخيه ووليه من الإنس في قالب تنفر عنه خفافيش البصائر وضعفاء العقول وهم أكثر الناس، وما حذر أحد من باطل إلا أخرجه الشيطان على لسان وليه من الإنس في قالب مزخرف يستخف به عقول ذلك الضرب من الناس فيستجيبون له، وأكثر الناس نظرهم قاصر على الصور لا يتجاوزونها إلى الحقائق فهم محبوسون في سجن الألفاظ مقيدون بقيود العبارات كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:112-113].
انتهى كلامه رحمه الله، إعلام الموقعين عن رب العالمين.

ولعل خير مثال لما ذكره هؤلاء الأئمة ما يروّج له في هذه الأزمان، وهو ما اصطلح عليه الناس من تسمية الكفار والمشركين غير العسكريين بالمدنيين، وعليه فلا يجوز عندهم استهدافهم بالقتل أو التعرض لهم، وهذا المصطلح وما ترتب عليه من أحكام باطل منقطع النسبة والنسب لشرع الله ودينه لفظا ومعنى؛ لأن ميزان التفريق في الإسلام لا يقوم بين مدني و عسكري، وإنما يقوم على أساس التفريق بين المسلم والكافر.

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ} [التغابن:2].

فالمسلم معصوم الدم أيًّا كان عمله ومحله، والكافر مباح الدم أيًّا كان عمله ومحله، ما لم يكن له عهد أو أمان.

وقد قال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال:39].

قال ابن العربي: (سَبَبَ الْقَتْلِ هُوَ الْكُفْرِ بِهَذِهِ الْآيَةِ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: {حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ} [الأنفال:39]؛ فَجَعَلَ الْغَايَةَ عَدَمَ الْكُفْرِ نَصًّا، وَأَبَانَ فِيهَا أَنَّ سَبَبَ الْقَتْلِ الْمُبِيحَ لِلْقِتَالِ [هو] الْكُفْرُ). انتهى كلامه رحمه الله [أحكام القرآن لابن العربي].

قال ابن كثير رحمه الله: (وقد حكى ابن جرير الإجماع على أن المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمان، وإن أمّ البيت الحرام أو بيت المقدس). انتهى كلامه رحمه الله [تفسير ابن كثير].

قال الشوكاني: (فالمشرك سواء حارب أولم يحارب مباح الدم مادام مشركا) انتهى كلامه.

فكل أهل الأرض مع الإسلام ثلاثة أقسام لا رابع لها:

القسم الأول: أهل الإسلام المنتسبون له.

والقسم الثاني: المسالمون للإسلام، المهادنون لأهله بذمة أو هدنة أو أمان.

وهذان القسمان دماؤهم وأموالهم معصومة إلا أن يأتي أحدهم بما يباح به دمه، أو ماله بحكم الشرع.

والقسم الثالث: وهم كل ما عدا ذلك من أهل الأرض فكل كافر على وجه الأرض لم يسالم الإسلام ولم يهادن أهله بذمة أو هدنة أو أمان فهو كافر محارب لا عصمة له مطلقا ما لم يكن ممن نهي عن قتله ابتداءً كالصبيان والنساء.

فالكفر و إباحة الدم والمال قرينان لا ينفكان في دين الله وشرعه، ولا يعصم من ذلك إلا من عصمه الإسلام بذمة أو هدنة أو أمان.

وكذلك مفهوم الجهاد في الإسلام الذي يتعرض لأعتى هجمات التشويه، من قبل أعداء الدين من مستشرقين ومستغربين وعلمانيين وغيرهم، بدعوى أنه مفهوم يتنافى مع مبادئ حقوق الإنسان التي شرعوها، وأنه إنما يعني: سفك الدماء ونشر القتل وإحداث الدمار.

وقد تأثر بهذه الحملة التغريبية كثير من المسلمين حتى باتوا يستحيون من ذكر هذا المصطلح العظيم، خشية اتهامهم بالإرهاب واستبدلوه بمصطلحات فضفاضة لا تؤدي ما أراده الشارع من هذه الكلمة العظيمة، استبدلوه بلفظ المقاومة وحق الدفاع عن النفس، وغير ذلك من الألفاظ التي شرعتها وأقرتها دساتير الأمم المتحدة وغيرها.

مجاراةً منهم للتيار الجارف من العلمانيين واللبراليين الجدد رموزًا وكتّابًا وأدباء و صحفيين وباحثين وغيرهم، مما رجع سلبًا على الجهاد وأهله، حيث أدى ذلك إلى إدخال جماعات و أحزابٍ وفصائل لا تمت إلى الجهاد بصلة في مدلول هذا المصطلَح العظيم، كحزب الله الرافضي وحركة فتح العلمانية وغيرهما بل إنه يدخل في هذه الألفاظ من

ليس من هذه لملة الغراء، كالجيش الإيرلندي، والحركة الشعبية الصليبية، والجبهة الشعبية الشيوعية و غيرها.

وذلك بجامع أن كل من يدفع عن بلاده العدو الصائل يسمى مقاومًا، وكل من يقاتل محتلاً يسمى مقاومًا، أما لفظ الجهاد ومصطلحه فهو أعمق وأوضح وله مدلولاته وأبعاده العظيمة في نفوس أبناء الأمة.

فعندما يطلق لفظ الجهاد يخرج منه كل من لم يقاتل في سبيل الله، سواء قاتل لعصبية أو قومية أو وطنية أو لمال أو منصب أو جاه أو أرض أو غيرها، وإن صُبغ ذلك ببعض الشعارات الإسلامية زورًا وبهتانًا.

فإن قيل: يا فلان لقد حجرت واسعا، قلت: لعمر الله ليس كذلك، بل هو دين الله وشرعه ولكنه اسم ممن ميع دين الله وجعله كثوب السابري.

روى البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل رياءً فأي ذلك في سبيل الله؟ قال صلى الله عليه وسلم: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله). متفق عليه، صحيح مسلم [109]

ومثل هذا المصطلح مفتتن به كثير من رجالات الدعوة اليوم وظنّوه طريقا للتمكين لدين الله وشرعه، ورموا كل من لا يوافقهم عليه بكل نقيصة، وهو ما يعرف اليوم بعلم السياسة، المأخوذ عن كفرة الغرب والشرق، و فتنته اليوم كفتنة علم الكلام، يوم أن ظهر للصد عن دين الله الحق، والإعراض عن هدي الكتاب والسنة وكلاهما مما جاءنا من كفرة الغرب أساسًا مع فسادهما في أنفسهما.

قال ابن القيم: (وتقسيم بعضهم طرق الحكم إلى شريعة وسياسة، كتقسيم غيرهم الدين إلى شريعة وحقيقة، وكتقسيم آخرين الدين إلى عقل ونقل، وكل ذلك تقسيم باطل، بل السياسة والحقيقة والطريقة والعقل؛ **كل ذلك ينقسم إلى قسمين:**

صحيح وفاسد.

فالصحيح قسم من أقسام الشريعة لا قسيم لها، والباطل ضدها ومنافيها وهذا الأصل من أهم الأصول وأنفعها، وهو مبني على حرف واحد، وهو عموم رسالته صلى الله عليه وسلم بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم، وأنه لم يحوج أمته إلى أحد بعده). انتهى كلامه رحمه الله [إعلام الموقعين عن رب العالمين].

وقال طاشقبردانه في مفتاح دار السعادة: (وأما الذين يقولون لا بد للشرع من انضمام السياسة فهذا خطأ الجهلة والعوام، إذ الشرع لا يحتاج إلى غيره ومضمون قولهم هذا أن الشرع لم يرد بما يكفي في السياسة فاحتجنا إلى تتمة من أرائنا وكيف يحتاج الشرع إلى السياسة والأنبياء تكمل بهم أمور الدارين، وما يصلح به الإنسان كلية علميا وعمليا و ذوقيًا وكشفيًا وشهودًا بحيث لا أكمل ولا أفضل من ما نطق به خير البشر وأشار إليه بقية الأنبياء حتى لو اجتمع عقول العقلاء وفهوم الحكماء والأطباء لم يقدروا المزيد عليها ولو بجزء من ألف ألف جزء من ذرة صغيرة).انتهى كلامه رحمه الله.

وإنما أعرض من أعرض عن الكتاب والسنة هنا فتنة بهذه الجهالات أولاً ثم جهلا بالكتاب والسنة وما فيهما من خير وهدى ورشاد ثانيًا، ومن جهل شيئا عاداه.

قال شيخ الإسلام بن تيمية: (فلا يعدل أحد عن الطرق الشرعية إلى البدعية إلا لجهل، أو عجز، أو غرض فاسد) . انتهى كلامه رحمه الله [إعلام الموقعين عن رب العالمين].

ولا والله ما كان المسلمون في حاجة لما يسوسون به دنياهم بما يحقق لهم خير الدين والدنيا بشيء خارج عن الكتاب والسنة وهم من أقام أعظم مملكة عرفها تاريخ البشر قاطبة سياسة ونظامًا وحكما وعدلا،وكيف للمسلمين أن يستبدلوا بالكتاب والسنة غيرهما وهما ما أنزلا أصلاً إلا لسياسة الدنيا بشرع الله المطهر.

وقد قيل:

جميع العلم في القرآن لكن * تقاصر عنه أفهام الرجال**

وقد جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (من أراد العلم فليقرأ القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين).

وقد أحسن القائل:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة * إلا الحديث وإلا الفقه في الدين**
العلم ما كان فيه قال حدثنا * وما سواه فوسواس الشياطين**

قال شيخ الإسلام: (العلماء إذا أقاموا كتاب الله وفقهوا ما فيه من البينات التي هي حجج الله، وما فيه من الهدى الذي هو العلم النافع والعمل الصالح،وأقاموا حكمة الله التي بعث الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم وهي سنته، لوجدوا فيها من أنواع العلوم النافعة ما يحيط بعلم عامة الناس ولميزوا حينئذ بين المحق والمبطل من جميع الخلق بوصف الشهادة التي جعلها الله لهذه الأمة، حيث يقول عز

وجل: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} [البقرة:143]، ولاستغنوا بذلك عما ابتدعه المبتدعون من الحجج الفاسدة التي يزعم الكلاميون أنهم ينصرون بها أصل الدين ومن الرأي الفاسد الذي يزعم القياسيون أنهم يتمّون به فروع الدين).انتهى كلامه رحمه الله.

وقال رحمه الله: (المقصود أن يُعرف أن الصحابة خير القرون وأفضل الخلق بعد الأنبياء، فما ظهر فيمن بعدهم مما يظن أنها فضيلة للمتأخرين ولم تكن فيهم فإنها من الشيطان، وهي نقيصة لا فضيلة، سواء كانت من جنس العلوم أو من جنس العبادات، أو من جنس الخوارق والآيات أو من جنس السياسة والملك، بل خير الناس بعدهم أتبعهم لهم). انتهى كلامه رحمه الله [مجموع الفتاوى / الزيارة وشد الرحال إليها].

بل إن القرآن الكريم قرر لنا قاعدة هامة وهي عدم جواز استخدام المصطلح الذي قد يوهم معنى باطلاً وإن كان هذا المعنى الباطل غير مرادف لهذا المصطلح أصلا بل ولم يخطر ببال المتكلم فكيف بما هو فوق ذلك من المصطلحات المتضمنة للمعاني الباطلة في أصل وضعها.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [البقرة:104].

قال السعدي رحمه الله: (كان المسلمون يقولون حين خطابهم للرسول عند تعلمهم أمر الدين: **(راعِنا)؛** أي: راع أحوالنا فيقصدون بها معنى صحيحا وكان اليهود يريدون بها معنى فاسدًا، فانتهزوا الفرصة فصاروا يخاطبون الرسول بذلك ويقصدون المعنى الفاسد فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة سدًا لهذا الباب). انتهى كلامه رحمه الله [تفسير السعدي].

ونحو هذا قوله صلى الله عليه وسلم: (لا يقولن أحدكم للعنب الكرم، فإن الكرم الرجل المسلم). [قال الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: 7710 في صحيح الجامع]

قال الخطابي رحمه الله: (إنما نهاهم عليه السلام عن تسمية هذه الشجرة كرمًا لأن هذا الاسم مشتق عندهم من الكرم، والعرب تقول رجل كرم بمعنى كريم وقوم كرم أي كرام، فأشفق صلى الله عليه وسلم أن يدعوهم حسن أسمائها إلى شرب الخمر المتخذة من ثمرها. فسلبها هذا الاسم وجعله صفة للمسلم الذي يتوقى شربها ويمنع نفسه الشهوة فيها عزّة وتكرّمًا). انتهى كلامه رحمه الله.

وقال ابن القيم: (ومن عرف تأثير الأسماء في مسمياتها نصرةً وميلاً عرف هذا، فسلبها النبي صلى الله عليه وسلم هذا الاسم الحسن وأعطاه ما هو أحق به منها وهو قلب المؤمن). انتهى كلامه رحمه الله.

والناظر في تاريخ الإحداث في دين الله يجد أن المصطلحات المحملة التي قد يُفهم منها معان بعضها حق وبعضها باطل،كانت هي من أهم طرائق المبتدعة لإبطال الحق وإحقاق الباطل تستراً خلفها ولوذًا بها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وأما الألفاظ التي ليست في الكتاب و لا في السنة، ولا اتفق السلف على نفيها أو إثباتها، فهذه ليست على أحد أن يوافق من نفاها أو أثبتها حتى يستفسر عن مراده، فإن أراد بها معنى يوافق خبر الرسول صلى الله عليه وسلم أقر به، وإن أراد بها معنى يخالف خبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنكره.

ثم التعبير عن تلك المعاني، إن كان في ألفاظه اشتباه أو إجمال عبر بغيرها أو بين مراده بها؛ بحيث يحصل تعريف الحق بالوجه الشرعي؛ فإن كثيرًا من نزاع الناس سببه

ألفاظ مجملة مبتدعة، ومعان مشتبهة). انتهى كلامه رحمه الله [مجموع الفتاوى / فصــل في المراد بلفظ الحروف].

فالنجاة هي في التمسك بما جاء به الشرع وما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم، فنطلق ما أطلقوا من الألفاظ والمصطلحات ونسكت عما عنه سكتوا.

قال أبو حامد الغزالي: (ما سكت عنه الصحابة مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر) انتهى كلامه رحمه الله [إحياء علوم الدين / كتاب قواعد العقائد].

إن قضية المصطلح في الخطاب الدعوي قضية عظيمة الأهمية جدًا، إذ المصطلح يتجاوز صورته الظاهرة كمجموعة حروف أو كلمات بما هو أكثر أبعادًا وأعظم غورًا ذلك أن المصطلح في خطاب الداعية هو المعبر الأول عن الهوية، كما أنه المعبر عن درجة الانتماء لهذه الهوية فإن اللسان العربي شعار الإسلام وأهله و اللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميزون.

قال شيخ الإسلام بن تيمية: (اعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخُلق والدين تأثيرا قويًا بينًا، ويؤثر أيضا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق) انتهى كلامه رحمه الله.

ومن ثم كان التمسك بالمصطلح الشرعي علامة على زيادة العقل والدين والخُلق مع كونه في الوقت نفسه علامة على الاستعلاء والاعتزاز بالموروث الأصيل، وعدم التبعية الممقوتة والضعف والانهزامية للوافد الدخيل.

وهذه الأمور كلها من أظهر مقومات صحة الأمة وعافيتها، ودلائل قوتها وثقتها بنفسها فضلاً عن كونها صفات ذاتية للطائفة المنصورة.

ثم إن أهل الطائفة المنصورة في دعوتهم الخلقة للحق لا يخاطبونهم بلغة مجملة مضطربة هروبًا من التصريح بما يجب التصريح به كما لا يخاطبونهم بتكلفٍ وتقعرٍ مذموم، أو بمصطلحات موّلدة غريبة، قد تحمل من الباطل أكثر مما تحمله من حق فضلا عما فيها من هجر للمصطلحات الشرعية، وهم في ذلك كله ينطلقون من القرآن الكريم ذلك الكتاب المعجز فخطابهم الدعوي خطاب قرآني في لغته كما أنه قرآني في مضمونه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:70-71].

فأمرنا الله تعالى بأن نقول قولا سديدًا والقول السديد هو ما كان سديدًا في معناه سديدًا في مبناه تبعًا للمخاطب به وأسدُّ القول وأحسنه قول الله سبحانه وتعالى الذي أنزل للناس كافة.

إن الخطاب الدعوي لأهل الطائفة المنصورة يتميز عن غيرهم بميزات منها:

أولاً: عدم التكلف في العبارة؛ فالتكلف مذموم مطلقا وقد جاءت الشريعة بالنهي عنه، ومن أسوأ التكلف التكلف في الخطاب الدعوي ب[illegible] الكلام والتقعر به والتفاصح فيه والولع بالتراكيب اللغوية المتكلفة والتفنن فيها والاهتمام الزائد بها، والذي يصل في أحيان كثيرة إلى التفريط في المضمون لصالح الشكل مع ترك الاسترسال السلس في العبارة، والكلمات قريبة التداول سريعة الوصول للعقول والقلوب شغفًا بهذه التراكيب لدعم البلاغة والرصانة في العرض والعمق والجدية في الطرح وليس هذا من ذاك في شيء.

فالقرآن الكريم وهو مقياس الفصاحة والبلاغة سهل المأخذ، داني القطاف ينساب في عذوبة واسترسال إلى القلوب والعقول بغير تكلف.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بأنه مُ بين فقال تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} [المائدة:15].

وقال تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء:192-195].

قال ابن كثير: (وقوله تعالى: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء:195] أي هذا القرآن الذي أنزلناه إليك، (أنزلناه) باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل، ليكون بيناً واضحاً ظاهراً، قاطعاً للعذر، مقيماً للحجة، دليلاً إلى المحجة). انتهى كلامه رحمه الله [تفسير ابن كثير].

فسهولة الخطاب ويسره مع وضوح المقصود وظهوره لا تعني الركاكة، كما أن التكلف ولي الألفاظ لا يعني البلاغة والبيان، والنبي صلى الله عليه وسلم هو أفصح من نطق بالضاد وقد أوتي جوامع الكلم وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بالبلاغ المبين.

فقال: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [التغابن:12].

فبلغ صلى الله عليه وسلم البلاغ المبين مع امتلاكه ناصية الفصاحة، واعتلائه صهوة البلاغة والبيان ومع هذا كله فأحاديثه وأقواله صلى الله عليه وسلم أبعد ما تكون عن التكلف والتعمق في لفظها ونظمها وتراكيبها.

قالت عائشة رضي الله عنها: (كان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كلاماً فصلاً، يفهمه كل من سمعه).

وعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن أحبكم إلى الله وأقربكم مني أحاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلى الله وأبعدكم مني الثرثارون المتفيقهون المتشدقون).

قال المناوي: (**الثرثارون:** الذين يكثرون الكلام تكلفا وتشدقا والثرثرة: كثرة الكلام وترديده، **والمتفيقهون:** أي الذين يتوسعون في الكلام ويفتحون به أفواههم ويتفصحون فيه، **والمتشدقون:** الذين يتكلمون بأشداقهم ويتقعرون في مخاطبتهم). انتهى كلامه رحمه الله [فيض القدير].

فَهمُّ أهل الطائفة المنصورة الأكبر في دعوتهم الخلق إلى الحق هو إيصال هذا الحق إلى القلوب والعقول لتعقل عن الله دينه وشرعه لا لإبراز القدرات اللغوية والمهارات الأدبية والتصرف في فنون القول مما يحرج بالدعوة عن هدفها ومقصودها الأساس، والتأمل في كتبه ورسائله صلى الله عليه وسلم، التي كانت رسلها للدعوة، يجد فيها التركيز على إيصال الدعوة للغير مع إفصاح عن مقصودها دون تكلف لفظ أو ترسل فإنما هو وضوح المقصد وسلاسة العبارة وقوة المنطق ونفاذ المعنى، وعلى هذا جرى خير من حمل هذا الدين في دعوة الناس إليه.

قال الشاطبي رحمه الله: (وعلى هذا النحو مر السلف الصالح في بث الشريعة للمؤالف والمخالف ومن نظر في استدلالهم على إثبات الأحكام التكليفية علم أنهم قصدوا أيسر الطرق وأقربها إلى عقول المخاطبين و الطالبين لكن من غير ترتيب متكلف ولا نظم مؤلف بل كانوا يرمون بالكلام على عواهنه، ولا يبالون كيف وقع الكلام في ترتيبه

إذا كان سهل المأخذ قريب الملتمس).انتهى كلامه رحمه الله [الموافقات].

ثانيًا: البعد عن الإجمال الملبس؛ الذي يوقع المدعو في الحيرة والتخبط، فلا يدري معه ما الذي يريده الله منه، فقد أنزل الله تعالى كتابه مفصلا خاصة فيما يتعلق بأصل الدين من الإيمان والتوحيد وما يتعلق بما يجب فعله وما يجب تركه من الواجبات والمحرمات، فكان الإجمال في هذه المواضع عند العلم بالتفصيل من الكتمان الذي حرمه الله وتوعد صاحبه.

قال تعالى: {وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ} [الأنعام:126]

قال السعدي رحمه الله: (أي: معتدلا، موصلا إلى الله، وإلى دار كرامته، قد بينت أحكامه، وفصلت شرائعه، وميز الخير من الشر) انتهى كلامه رحمه الله.

وقال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ} [التوبة:115].

فالتفصيل لمسائل الدين الكبار ومسائله الأصلية مانع من الضلال ومؤمن من الانحراف.

فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (الحلال بيِّن و الحرام بيِّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقي الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا و إن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه) [متفق عليه: صحيح البخاري / باب فضل من استبرأ لدينه / 52].

وهذا الإجمال غالبًا ما يكون دافعه الجهل أو إيثار السلامة وكلاهما مما لا يتحقق معه وضوح وبيان الخطاب الدعوي، وإن المتأمل لحال أهل العلم في عصرنا ليلمس أن إيثار السلامة هو السمة العامة لكثير منهم إلا من رحم ربي، فكثر الإجمال في مقالهم وعمّ التلبيس في كتاباتهم، وسكتوا عن ظلم الطواغيت وتنكيلهم بأهل الحق الصادعين بالصدق، وليتهم إذ جبنوا عن الصدع بالحق كفوا ألسنتهم وأمسكوا أقلامهم عن الطعن في أهل الحق المجاهدين الذين عقدوا على عاتقهم نصرة هذا الدين وتبليغه للعالمين

وقد نص العلماء على أن الإجمال فيما حقُّه التفصيل والبيان هو من زلة العالم التي يُحذر ويحذّر منها والتي يتولد منها شر مستطير وفساد عظيم.

قال المناوي: (احذروا زلة العالم اي احذروا الإقتداء فيه فيها ومتابعته عليها، ثم ذكر أمثلة لذلك ومنها: تسارعه إلى الجواب من رأس القلم أو اللسان و إجماله في محل التفصيل والبيان، فهذه ذنوب يتبع العالم فيها العالم، فيموت العالِم ويبقى شره مستطيرًا في العالم) انتهى كلامه رحمه الله [فيض القدير شرح حديث 244].

اللهم ارزقنا أن نكون لكتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم من المتمسكين وعنهما من القائمين وإليهما من الداعين وعنهما من المنافحين.

{وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} [يوسف:21]

و الحمد لله رب العالمين.

أَبُوْ مُصْعَبٍ الزَّرْقَاوِي
أَمِيْرُ تَنْظِيمِ القَاعِدَةِ فِيْ بِلَادِ الرَّافِدَيْن

العِرَاقُ – بِلادُ الرَّافِدَيْن